اللغة والأسلوب في شعر (عرار)

للدكتور مصطفى السمرة
(نائب رئيس مجمع اللغة العربية الأردني)

قبل ثلاثين عاما توفي مصطفى وهبي التل . وقبل خمسة وعشرين عاما صدرت الطبعة الاولى من ديوانه « عشيات وادي اليابس » في عمان .

ورغم ان عرارا مشهور معروف في الاردن ، وحتى خارج الاردن دون منازع ، يحفظ شعره المثقفون ، ويعرفه حتى من لا يحفظ حظا قليلا من الثقافة ، الا انه لا يكاد يعرفه احد خارج الاردن .

لماذا ؟

لعل من اسباب ذلك ان ديوانه الاول صدر في وقت كانت فيه امكانيات الطباعة في الاردن محدودة جدا : فالمعروف منها قليل ، والاغلاط كثيرة ، والورق رديء ، والتوزيع معدوم .

ثم : ان شعر عرار مُحَلّى ، مغرق في محليته : محلّى في موضوعاته ، واشاراته ، وكثير من تعبيراته . ومما لم يتمثل القارئ هذه كلها تمثلا واضحا ، فان تجاوبه مع هذا الشعر يبقى محدودا . وقد يبذل المرحوم الاستاذ محمود المطلق جهدا طيبا في شرح ما يحتاج الى شرح ، لتقريب هذا الشعر الى اذواق القراء العرب . واذكر انه ما من مرة تذاكرت شعر عرار مع اخوة عرب ، وقدّمت لهذا الشعر بما يُعين على ادراكه وتمثّله ، الا وجدت عندهم استجابة له ، ودهشة لان مثل هذا الشاعر غير معروف عندهم .

ثم : هناك امر يقع على ادباء الاردن : انهم لم يعنوا انفسهم بالتعريف بالشاعر وتقديم الدراسات عنه ، الا في نطاق محدود .

* * *

لهذا وجدتُ ان الحاجة اصبحت ملحّة لاصدار طبعة ثانية من الديوان ، وخاصة عندما وُضعت بين يدي اوراق الشاعر ، فوجدت فيها شعرا يستحق ان ينشر ، ولم ينشر .

وهكذا ، في سنة ١٩٧٣ صدر ديوان « عشيات وادي اليابس » في طبعة جديدة فريدة ، تعكس تقدم فن الطباعة في الاردن الحديث ، وتقع بين ايدي القراء شعر الشاعر الاول في الاردن في شكل يليق بجمال هذا الشعر ، وقد زينته رسومات الفنان الموهوب مُهنّا الدرة ، لماذا من ذلك ان نستطيع ايصال الديوان الى ايدي محبي الشعر الجيد ، لا في الاردن فحسب ، بل في اكثر عدد ممكن من البلاد العربية الشقيقة .

ولكن ما اردناه لم يتحقق ، لسبب بسيط هو افتقارنا الى مؤسسة ، او شركة ، لتوزيع الكتاب الاردني وتسويقه . وبقيت هذه الطبعة يسعى الى الحصول على نسخة منها ، ويجدّ في السعي ، من يجد الرغبة في ذلك .

* * *

وفي رأيي انه ما زالت هناك حاجة الى اصدار طبعة جديدة من الديوان ، يقوم المحقق فيها بايراد الروايات المختلفة للابيات ، وترتيبها في القصائد ؛ فقد خلصتُ من اطلاعي على اوراق الشاعر الى ان الصورة التي بين ايدينا القصائد والابيات ، ليست الا صورة واحدة من صور عدة : ففي كثير من القصائد نجد ترتيب الابيات مختلفا ، والتغيير في الفاظ الابيات كثيرا . ويحضرني هنا التحقيق الممتاز الذي قام به المستشرق Ritter لكتاب « اسرار البلاغة »

الكبار ، الذيـن يجمعون احيانا بين الرائع والرديء في القصيدة الواحدة ، ويجمعون بين سورتين متنافرتين في بيتين متتاليين .

واذا كنـا قد بدانا القول بان من سمات شعر عـرار انه شعر مَحَلّي ، بالمفهوم الذي حدّدناه ، فمـا موقف النقاد الجـدد (The New Critics) ، الذين يعيبون على كثير من الادب في ايامنـا هذه في الغرب ، من مثل هذا الشعر ؟ انهم يرون ان القصيدة الجيدة مكتفية بذاتهـا ، لا تحتاج للكشف عن اسرار البيئة التي ولدت فيها الى ان نعرف مناسبتها وظروفها ، ولا حتى من نظمها . وفي رايي ان هذا القول صحيح ، ولكن في حـدود . واننا لسنا من المؤمنين ايمانا مطلقا بمـا يقولون ، ومن المؤمنين بالمنهج التكاملي الذي يرى الاستفادة من كـل النظريات النقدية ، لانهـا متكاملة ، غير متناقضة ، والاختلاف بينها هو اختلاف في زاوية الرؤيـة .

٢ ـ شعر عـرار شعر ملتزم .

وقـد كان عرار شاعرا ملتزما ، بكل ما في هـذا المصطلح من دلالة وابعاد . وكانت مواقفه واضحة جريئـة : فقد وقف الى جانب الفقراء ، والمعوزين ، وساجـل المستغلّين ، ودعا الى المساواة ، ونـادى بالعدالـة .

وهـذا موقف سيبقى عرارا مذكورا دومـا كلما عن للشعراء ان ايجاد التعبير عنها في شعـره .

وهـذا يجعلنا نقف امام قضية مهمـة في الفن : فاذا كانت الالتزامية في الفـن عامة ، وفي الشعر خاصة (وسنقصر حديثي هنا على الشعر) ، تساءلنا : مـا غاية الشعر ؟

يـرى البعض ان غاية الشعر هي المتعـة ، وان القصيدة الجيدة هي التي تولـد اكبر قدر منها . وفي رايي ان المتعـة ليست غاية ، وان غاية الشعر عرض التجربـة الانسانية عرضـا يُرضي في نفس

فهما ومعرفة ، واذا كانت غاية العلم تفسير الوجود ، فان غاية الفن تقييم الوجود . وهذا ما تعانيه مرار في شعره .

وهذا ما عناه كمارتين في كتابه القيم « سيرة ادبية »
Biographie litteraire

عندما قال : ان الشعر ليس مجرد انفعالات واحاسيس ، فارخص انواع الادب يقوم على اثارتها . انه رؤيا ، وكشف عن اسرار الوجود .

* * *

ورغم التزام مرار العميق الحاد ، فانه كان في الوقت نفسه رومانسيا ، مغرقا في رومانسيته . واذا كان الرومانسيون الغربيون قد ملأوا بشعر حافل بالعاطفة المشبوبة من ثورتهم ، وهربوا الى الطبيعة والحياة البسيطة ، عندما ادركوا عجزهم عن التغيير ، فقد فعل مرار نفس الشيء : هرب الى مضارب النَّوَر ، والى حياة الريف ، حيث البساطة ، وراحة البال ، والمساواة التامة :

الكل زُمَّ بمساواةٍ محقَّقة تنفي الفوارق بين الجار والجارِ

* * *

٣ ـ شعر مرار شعر للرمز فيه دور كبير .

والحديث عن الرمز في شعر مرار حديث قد يطول ، ولهذا سنقصر حديثنا عن الرمز عنده على ثلاثة جوانب بارزة :

أولا : شخصية المرء : وهي شخصية حقيقية ، ورمزية ، في آن واحد .

ونجد وصف الرجيم الاستاذ يعقوب العودات المرء ، يقول :

« شخصية ثَوْرِيَّة ، نبيلة الخُلُق ، مستقيمة التسوام ، اختارها مرار لتراوح شكلها ، وحقارة شأنها ، هدفا لسهام نقده ، ومخاطبتها عندما يعلو الى خيال ذوي الشأن ، واستفزازهم » . (مرار شاعر الاردن ، ص ١٣٨) .

ويقول المرحوم الاستاذ مسعود المطلق :

« رأى عرار في هذه الشخصية انموذجا كاملا لشخصية النَّوَري ، ومثالا معبّرا عن كل ما في النَّوَر من خير وشر ، وحسن وقبح . ولهذا فقد اتخذ منه رمزا للنَّوَر ، وأداةً أدبية يستعين بها على التعبير عن آرائه ومقاصده ». (المقدمة ، ص ٢٢) .

وتقول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي :

« لعل عرارًا كان اول شاعر عربي حديث اتخذ من شخصية ما رمزا في الشعر ، وجعلها رموزا لقضايا حيوية ، جعل من المهبر رمزا للانسان البسيط المنبوذ المضطهد » . (مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني) .

وحقيقةُ الامر ان المهبر في شعر عرار رمز لاكثر من معنى :

انه رمز لما يتعاطف معه عندما يرى فيه الانسان البريء ، المنبوذ ، المضطهد ، والانسان المشرد الضائع .

وهو رمز لما يثير السخرية عندما يرى فيه الانسان الذي تملأ كل احساس بالكراهة .

* * *

ويبدو الرمز عند عرار ، ثانيا ، في شخصية الشيخ جَوَّد الاول ، وهي شخصية تُناقِض الشخصية الاولى تماما : فهي رمز لفئة من الناس منتفعة : فِئَتُها : « في الجنة الخلودُ » ، ومبداها انها : « جِنَّةُ عين جبيبه نقودُ » .

وسخريته منها ، ورفضه لها ، لانها بسلوكها تساهم في ابقاء الشعب على حاله من الجهل والتخلّف .

* * *

ويبدو الرمز عند عرار ، ثالثا ، في كل امرأة تنزل بها ، وكل قرية ذكرها ، وكلّ وادٍ تَغَنّى به . انها كلها رموز لهذا الوطن ، الذي أَحَبَّ كلَّ من فيه ، وما فيه .

١ ـ شعر عرار شعر عمودي ، منظوم على اوزان الخليل ، ما عدا قصيدتين هما :

« مَنْ ؟ » و « يا حلوة النظرة » .

ومن الخطأ الشائع ما نردده من ان كل قصيدة نظمت على وزن من اوزان الخليل فهي قصيدة عمودية ، مع ان الوزن (او البحر) ليس سوى شرط واحد من سبعة شروط حَدَّدها النقّاد العرب القدامى ، وجعلوها المبادىء التي يجب ان يتقيها الشعراء .

وكان المرزوقيّ خير من حدّد مفهوم عمود الشعر ، وذلك في مقدمته لشرح ديوان الحماسة ، في قوله : « انهم (القدماء) كانوا يحاولون : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخيّر من الفاظ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها القافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة ابواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها عيار (اي مقياس) » . وجمعها ابن طباطبا فكتب كتابه المعروف « عيار الشعر » .

شعر عرار عموديّ بهذا المفهوم للشعر العمودي الجيد .

ولسوء حظنا في هذا التعريف لوجدنا كثيرا من الشعر الذي يُعْرَف بانه عمودي ، ليس عموديا .

* * *

هذه ملاحظات نقدية عامة على شعر عرار ، لعلها تصلح لخطاطا لدراسة موسعة .

وعرار ، بعد هذا ، شاعرا لم ينل من عناية الدارسين ما يستحقه .

وما زال مجال القول فيه واسعا .

الدكتور محمود السمرة